يوم الزهاوى

للأســـتاذ يحيى محمد على

إنه ليوم وإن احتوته لجج الزمن الماضية واستقرت به فى أغوار الماضى ، فإن له بين شغاف القلوب الذاكرة للجميل ، وفى أعماق النفوس المطوية على الوفاء ، أثراً لا أحسب النسيان يقوى على طمس معالمه . إذ امتدت فيه يد القدر من بطون الغيب إلى قلب « الزهاوى » فأسكتته ، وإلى لسانه فأسكته ، وبذلك غيّضت من مناهل الحكمة منهلاً دفّاق الفيض ، وأطفأت من مشاعل العرفان مشعلاً وضّاء السّنا ، وقطعت من قيثارة الشعر وتراً رنّان الصوت ، وتركت فى كل فؤاد حسرات تضطرم ، وفى كل عين عبرات تختنق !

فكان يوماً لا نملك حين ينساب إلينا من مطاوى كل عام إلا أن نقف فيه وقفة الذاكر المحزون لنحلق بأجنحة الذكرى إلى أجواء رفيعة من النبوغ والعبقرية ، وآفاق مترامية من الإبداع

المندثر وساعاته الخاليات ، وذكر كيف اكتسح الأفق المديد ، وغطّى الشمس المشرقة ... ثم جاءت هذه النجوم الصغيرة تعبث به وتهزأ منه ، فلم يملك أن بكى ... وانثالت دموعه على كل نبتة وفوق كل غصن . وكان بكاؤه هذا الندى الطرى الذى اندفع يتلقى بسمة الصباح

... وهكذا تتراقص الأمانى من حوالينا ... أيتها الإنسانة الكريمة ... وتتبثق شعاعاتها الناعمة تخط الفجر الذى نرنو اليه ؛ وتتسق ألوانها الزاهية السبع لتنسج بردة الشمس ، ولكنها تمضى فى هدوء واتزان ؛ فلن تمر بنا فى كل مرحلة ، ولن تقف بنا عند كل لون . ولكنها ستتجوّنا هالة بيضاء نيّرة ؛ فهلا وفّرت عليك بعض الجهد ، وحفظت عليك بعض القوة ، وكففت عن ارتقاب المشرق كما أرقب ، والتحديق فيه كما أحدق ؟!

ولكن لا عليك ، لا عليك يا أمله ؛ حدّقى ، وارقبى ، إن نظراتنا كهذه النجوم ترقص رقصة الظفر ، وتنشد نشيد الحياة ، وترسم للقاء القريب دعوة كريمة !

(القاهرة) شكرى فيصل

١٨ ٠ ١٨

والعظمة ، تزيدنا إعجاباً بالزهاوى ، وإجلالاً لقدره ، ويقيناً بأن خسارتنا فيه كانت أعظم مما قدّرناه بكثير

ثم لا تلبث الذكرى أن تفتح لنا من أسفار المجد سفراً أفعم « الزهاوى » صفحاته بمآثره ومفاخره لنستمد منه لضلالنا هدى ولمحنتنا تجربة ، ولنستوحى كلمة حتى نفرغها فى مسامع أولئك الذين بخسوا « الزهاوى » حقه ، وأنكروا عليه نضاله المجيد وكفاحه الخالد وما كانوا إلا أنفسهم يظلمون ، وستبقى آثار « الزهاوى » لنهضتنا معيناً ثرّاً لا ينضب سيله الطامى ولا يغور . . .

وحسبنا — ومجال البحث لا يتسع للاطالة والإسهاب — صفحات من هذا السفر نقلبها بين أيدينا ، لينعموا النظر فيها ، وليحكموا بعقول سالمة من الأهواء ، وضمائر خالصة من الأحقاد ، على أدب « الزهاوى » وجهاده .

يقول الزهاوى : « ... غنّيت لأبناء وطنى أريد إيقاظهم ، فلما فتحوا عيونهم شتمونى ، ثم غنيت ، فأخذوا ينظرون إلىّ شزراً ، ثم غنيت فابتسموا لى ، ثم هتفوا لى وبقى فيهم من يشتم ، وغنيت وسأغنى إلى أن يسكتنى الموت ، وسوف تبقى بعدى كلماتى معربة عن شعورى وما كابدته فى حياتى من شقاء واضطهاد ، فهى دموع ذرفتها يراعتى على الطرس ناطقة بآلامى وهى خليقة بأن تذرف من عيون قارئها دمعة هى كل جزائى من نظمها . . . » !

فهو الشاعر الذى عاش لأمته فاستوحاها وأوحى إليها ، والذى ما خفق قلبه إلا بحبها ، وما توجع واضطرب إلا لمصائبها وهوانها ، والذى ما جرى لسانه إلا بذكرها ، وما شدا إلا بآمالها وأمانيها غنّى لها ، وغنى ، ولكنها تجاهلته حيناً واضطهدته أحياناً أخرى واهتزت جزعاً وحزناً حين فقدته

غنى لها حين ألفاها سادرة فى الضلال تتثبط فى رهج الونى والعجز ، وتتعثر فى دياجير الخمول والفتور ، ليوقظها من سباتها العميق ويمهد لها سبل الإفلات من ربقة هذه الغفلة ، فهو القائل :

تيقّظت الأقوام من غفلة لها ونحن بحال لم تزل فيه نهجع

والقائل :

أيها الشعب طال نومك فايقظ المساعى فالليل صار نهارا

وليبث فيها من الثقة والعزم ما يسر لها تحطيم أصفاد اليأس ونضو ثياب الذل ومجاراة الأمم التى سبقتها فى مضمار التقدم والرقى فقال :

يا قوم قد وعر الطريق أمامكم فإذا عزمتم تسهل الأوعار

إن التوقف فى زمان حازم فيه تقدمت الشعوب ، لعار

والقائل :

أمـة تكسر الزجاج إذا ما وجدت دون ما تريد زجاجا

وغنّى حين رأى الجهل يرين على العقول فيكبحها عن الرشاد والسداد ويهوى بها إلى وهدة الزيغ ، ليرفع عن مداركها آصار الأفن ويدر أعوادى الطيش ويخفف عُرام الأمية فقال :

العـــلم ثروة أمة ويسار والجهل حرمان لها وبوار

وقال :

لا يأمن المدلج السارى تورطه ما لم يوطد له من عقله سندا

وقال :

استنيروا بالعـــلم فالعلم نور إنما بالعلوم تنفى الشرور

وليهيب بها للتهافت على ينابيع العلم ونشر التعليم فقال :

أليس الرضى بالعلم أكبر حطة أليس ذراع العلم أقدر دافع

خذ العلم إن العلم مال لمعدم وريٌّ لعطشان وقوت لجائع

وقال :

تشق حياة مالها من مدرب وتشقى بلاد ليس فيها مدارس

ثم غنى لما وجد الرجعية تحدق بالحقائق تشوهها وتمسخها ، وتنأى بالعقائد عن هدفها السامى وغايتها المثلى ، فقال حاثاً على التمسك بالحقائق دون الأوهام والتحرر من نير الخرافات والنزوع إلى التجدد ومماشاة روح العصر الذى لم يعد يأتلف وهذه الأوهام

يا قومنا لا تقفوا فى أحلامكم نحذوا الحقائق وانبذوا الأحلاما

جهـل الذين على قديم عولوا إن الزمان يغير الأحكاما

وقال :

أنضوا القديم وبالجديد توشحوا حتام تختالون فى الاطمار

وتخلصوا من نير كل خرافة خرقاء تلقى الرين فى الأفكار

وغنى حينما تبين للمرأة تزرح تحت أعباء التقاليد البالية وينوء بها الحجاب ، مدافعاً عنها ، ذائداً عن حقوقها السليبة طالباً إنصافها فقال :

غصبوا النســاء حقوقهن فلا تصـان ولا تؤدي

وإذا النســاء ردين فى شعب فإن الشعب يردى

وقال :

طالما قد وقفت أدرأ عنهـــن الرزايا فيالها وقفات

ثم غنى ... وغنّى ...

وما كان ليفت فى عضد الزهاوى أو يثنيه عن عزمه طعن أو ثلب وإعنات أو إرهاق ورائده نصرة الحق ؛ وحسبه ذلك مسيغاً لغصة الجحود ، ومخففاً لوطأة النكران ، وإن قوله :

هى الحقيقة أرضاها وإن غضبوا وأدعيها وإن صاحوا وإن جلبوا

أقولها غير هياب وإن حنقوا وإن أهانوا وإن سبوا وإن ثلبوا

لأقوى دليل وأنصع برهان على تفانيه فى سبيل الحقيقة !

هذا هو الزهاوى وهذه بعض مآثره وألحانه ...

أفليس من حقه على أمته التى حمل نفسه من أجلها على المعاطب وجوزى منها بالصدود والإغفال أن تعنى بإحياء ذكراه برأ منها بالأدب واعترافاً بالفضل ووفاء بالعهد ؟ !

أمثل الزهاوى من يمر يوم ذكراه كسائر الأيام ؟ !

لطفك اللهم بالأدب ... فإن ما يلقاه من عقوق الناس لعظيم

وأنتم أيها الجاحدون لفضله ... أليس فى كل ما أداه الزهاوى لأمته ما يستدر من مآقيكم دمعة حبسها النزور ومنعها الحقد ؟

حسبك يا جميل أنك القائل :

كنت ألحق كل عمرى وفيًّا وسأبقى حتى أموت وفيًّا

وقد أديت رسالتك على الوجه الأكمل فى ذمة الخلود .

(بغداد — مصرف الرافدين) يحيى محمد عبد

أحدث مؤلفات :

الأستاذ محمود تيمور بك

القصصية والمسرحية

٤	المخبأ رقم ١٣	مسرحية	والبريد ١
٣	أبو شوشه. الصعلوك. الوكب	٣ مسرحيات	» ١
٢	عروس النيل	»	» ١
٨	مكتوب على الجبين	مجموعة قصصية	» ٢
٦	فرعون الصغير	»	» ٢
٣	ما تراه العيون	»	» ١

تطلب من مكتبة الجامعة . شارع محمد على بمصر